

المقاربة النفسية- الاجتماعية للهجرة غير الشرعية في الجزائر

أ / عفاقنية مها
جامعة قسنطينة

الملخص :

Résumé :

Cette étude vise à analyser le phénomène de l'émigration clandestine en Algérie, à travers une approche psychosociale qui dévoile la construction et le contenu des représentations sociales de l'Europe et leurs impacts sur l'émigration clandestine. Ou Il est non seulement un groupe de jeunes qui sont touchés par la nécessité ou la détérioration des conditions économiques et sociales, et même étend aux racines du passé. Tout ces facteurs composés construire une perception sociale nommé par les représentations sociale, qui aident à interpréter et à justifier la réalité et guider le comportement.

Mots clés: L'émigration clandestine, les représentations sociales, l'Europe.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل ظاهرة الهجرة غير الشرعية في الجزائر، و التي تعتبر آفة و مشكلة هددت و لا زالت تهدد فئة واسعة من المجتمع، و ذلك من خلال مقاربة نفسية اجتماعية تكشف كيفية بناء و تشكل التصورات الاجتماعية لأوروبا و تداعياتها على الهجرة غير الشرعية، و التي تعتبر ظاهرة عميقة و ذات أبعاد تاريخية و حضارية. فالأمر لا يقتصر على مجموعة من الشباب الذين مستهم الحاجة أو تردي الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية، بل يمتد إلى جذور الماضي. فكل العوامل تلاحمت مكونة بناء نفسي-اجتماعي يطلق عليها اسم التصورات الاجتماعية، و التي تعمل على تفسير و تبرير الواقع و توجيه السلوك.

الكلمات المفتاحية: الهجرة غير الشرعية، التصورات الاجتماعية، أوروبا

مقدمة:

تعد الهجرة ظاهرة إنسانية قديمة قدم المجتمعات البشرية، فمنذ إدراك الإنسان لذاته وطموحاته و هو ينتقل من مكان إلى آخر بحثا عن فرص الحياة و العيش و الأمن. و أن كانت الحاجيات، مطالبا رئيسيا حسب مختلف التخصصات الأكاديمية، فإن تحقيقها و ترسيخها تلازم مع ظاهرة الهجرة فقد ساهم هذا التلازم بين حاجيات الإنسان و حركته في الكثير من الأحداث، فصنعت الوقائع و كتب التاريخ. فقد عملت الهجرة على تعزيز تفاعل القيم و حيوية العلاقات التي بنت و طورت الحضارات و المجتمعات.

إلا انه و مع انتشار مفهوم الدولة الحديثة حيث رسمت الحدود و ظهر مفهوم القومية و الوطنية تم تنظيم حركة تنقل الأفراد فخضعت هذه الظاهرة للتقنين بما يخدم مصالح الدول. و تم اعتبار ما يخرج عن هذا الإطار المنظم كهجرة غير شرعية.

فتحولت الهجرة، شرعية كانت أو غير شرعية، لظاهرة لافته للنظر و شأنها يعنى كل دول العالم، لاسيما بعد التحولات المتسارعة التي يشهدها عالمنا من حروب و صراعات و هوة اقتصادية سحيقة بين الدول المتقدمة و النامية. لذا أثير حولها نقاش مستفيض و حظي باهتمام العامة و الخاصة. و لعل من أنشط محاور الهجرة، في اللحظة الحضارية الآتية، تلك التي تتم بشكل غير شرعي و تؤدي بحياة الآلاف من الأشخاص الذين فروا من ويلات القيود و الحروب و الفقر.....

1- الإشكالية:

في الجزائر، تنامت الهجرة غير الشرعية أو ما يعرف عنها بظاهرة "الحراقة" باللغة العامية الجزائرية وأصبحت هاجسا وانشغالا وتخوفا من طموح الهجرة وسط شرائح واسعة و مختلفة من المجتمع الجزائري، حيث تنعكس هذه الظاهرة إما في العديد من المقولات التي نسمعها أو نقرأها على جدران العمارات والمؤسسات العمومية مثل : " يأكلني الحوت خير من أن يأكلني الدود"، أو كعنوان لمشروع التحدي يهتف به في مدرجات الملاعب و فضاءات الفن، بل أكثر من هذا في فضاءات الشبكات الاجتماعية ومقبولا اجتماعيا ولصيقا بالنيف (الكرامة) والمباهاة، ليتحول من ظاهرة اجتماعية إلى تحدي الأنظمة القانونية والضوابط الاجتماعية والأخلاقية وحتى الدينية.

إن الملاحظ و المحلل للهجرة غير الشرعية و تداعياتها على المجتمع الجزائري يقر بتضايف كل من العوامل الاقتصادية و الاجتماعية و حتى التاريخية و الحضارية في تكوين بناءات نفسية معرفية أعادت رسم الواقع وفق هذه الظروف و أثرت في حياة الفرد و في قراراته. فامتزجت كل من البطالة و الفقر وانخفاض القدرة الشرائية مع الآفات و المشكلات الاجتماعية زد إلى ذلك الرواسب التاريخية لسياسة الاستعمار و الانبهار بحضارة أوروبا وأنماط عيشها وطرق حكمها فتشكلت أحكام و تصورات اجتماعية كانت بمثابة المحرك و الموجه و حتى المبرر للهجرة غير الشرعية.

و هذا ما أشار إليه جون كلود باربولان بأن التصورات الاجتماعية: " أنظمة عقلية مرجعية تسمح للفرد بتفسير الأحداث الخارجية، فهذه التصورات تشكل أحكاما مبنية مسبقا تسمح في البث فورا في أي نشاط أو ردة فعل" نقلا عن (1).

فنستنتج أن التصورات الاجتماعية انعكاس لتاريخ و تجارب و مشاعر و أفكار مشتركة بين العديد من الأفراد تساعد على إعطاء معنى لتصرفاتهم و ممارساتهم، إذ تسمح بالتوقع بالنسبة لموضوع التصور بالتوجيه الملائم وبناء السلوكيات المناسبة. فهي رؤية وظيفية للواقع تمنح للفرد و الجماعة من خلال نظامهم المرجعي، و بالتالي يتكيف معه و يحدد مكانه فيه.

فالتصور حسب Moscovici يلعب دور الشاشة الانتقائية، بحيث ينتقي ما يلاءم موضوعاته من عقل الإنسان و يستعين بالذاكرة كصورة ديناميكية. أي أن الفرد يقوم بالتصور لموضوع ما بواسطة التذكر (ذاكرة جماعية و فردية) فيتبين أن التصور ليس مجرد انعكاس داخلي لواقع خارجي و على هذا الأساس يمكن القول انه ليس مجرد نسخة مطابقة لكل ما يحدث خارج عقل الإنسان. فالتصور يقع بين ما هو داخلي و بين ما هو خارجي، أي بين الحقيقة الجسمية و المادية و الحقيقة النفسية على اعتبار أنها عملية عقلية ذهنية يحاول الفرد استحضارها في ارض الواقع.

و بذلك فإن الفرد في أثناء فهمه للمحيط و التعامل معه يكتسب و ينمي أنماط تفكيرية تترجم على أنها تصورات اجتماعية أو ذهنيات جماعية تحرك أفعالنا و تفسر حقائق عالمنا. و في هذا الصدد جاء بحثنا قصد معرفة الأفكار الجماعية أو بعبارة أخرى التصورات الاجتماعية التي ساهمت في توجيه فئة من الجزائريين للهجرة غير الشرعية. و بذلك عملنا على أن نتجاوز إشكالية بحثنا الجوانب السطحية للظاهرة لتتعدى و تلمس عمق الموضوع.

ومن كل ما ذكر تصاغ في أذهاننا تساؤلات التالية: كيف تبنى و تتشكل التصورات الاجتماعية حول أوروبا و ما هو أثرها على السلوك؟ ما هي معززات هذه التصورات و علاقتها بالهجرة غير الشرعية؟ و كيف يتصور المهاجرون غير الشرعيون أوروبا؟

2- أهمية الدراسة:

يكتسي موضوع التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين أهمية كبيرة نظرا لطبيعة الموضوع و خطورته و انتشاره عالميا و محليا، فظاهرة الهجرة السرية آفة و مشكلة اجتماعية هددت و لا زال تهدد فئة واسعة من المجتمع الجزائري على اختلاف أعمارهم و مستوياتهم التعليمية و الاجتماعية، فكان من الضروري الوقوف بالدراسة العلمية الجادة و المعمقة لواقع أولئك الذين يغامرون بحياتهم في رحلات الموت.

كما تستمد هذه الدراسة أهميتها العلمية من أهمية التصورات الاجتماعية و موقعها الأساسي ضمن البحوث النفسية و الاجتماعية، فلطالما ركزت جل الدراسات على الاتجاهات و الآراء في تفسير الظواهر الاجتماعية. أما موضوع التصورات الاجتماعية فهو الأوسع و الأشمل لإلمامه بمعظم النظريات و البحوث الحديثة، و منه كانت التصورات الاجتماعية الأنسب لدراسة الهجرة غير الشرعية.

3- تحديد المصطلحات:

3-1 التصورات الاجتماعية: عبارة عن مجموعة منظمة من المعلومات و الآراء و المواقف و المعتقدات حول موضوع معين. تشكل الرابط الاجتماعي بين الفرد و الجماعة حيث تكون مبنية و متقاسمة اجتماعيا إذ تتشكل من تاريخ الفرد و معاشه من جهة و النظام أو النسق الاجتماعية و الإيديولوجي الذي ينتمي إليه الفرد من جهة ثانية و نوعية الروابط التي يقيمها الفرد داخل النظام الاجتماعي من جهة أخرى. تعمل هذه التصورات على فهم الواقع و تبرير تصرفات الناس و سلوكياتهم بتهيئتهم للاستجابة بطريقة محددة حول موضوع ما. (2)

3-2 الترسخ: هي الصيرورة التي تسمح بإدماج التصور المتوافق و إطار التفكير الموجود مسبقا عند الفرد مع الإطار العام للفكر، أو بمعنى آخر هي عملية أساسية في تكوين التصورات الاجتماعية و التي تعمل على ربط العامل الحضاري والتاريخي للفرد مع التجارب المعاشة.

3-3 الهجرة غير الشرعية: هي انتقال أفراد أو جماعات من مكان إلى آخر بطريقة سرية مخالفة لقانون الهجرة كما هو متعارف عليه دولياً. في الجزائر يقصد بالهجرة غير الشرعية أو الهجرة السرية أو الحرقة: مغادرة أو محاولة مغادرة التراب الجزائري و التسلل إلى أراضي الدول الأخرى إما بدون وثائق رسمية أو بوثائق مزورة، سواء عن طريق البر أو البحر أو الجو. (3)

4- منهجية البحث:

استخدم المنهج الوصفي لأنه يتلاءم و مشكلة البحث، أسئلته و أهدافه. فهو عبارة عن بحث مكتبي عمل على استقراء المقاربة النظرية النفسية - الاجتماعية للهجرة غير الشرعية. اعتمد على تحليل محتوى الأدبيات المرتبطة بموضوع: الهجرة غير الشرعية، التصورات الاجتماعية : آليات بنائها و أثرها على السلوك. و هي مراجع امتزجت في اللغة بين العربية و الفرنسية.

ارتكز البحث على مجموعة من الكتب و المقالات المتناولة لجزيئات من موضوع الدراسة و قسمت هذه الأخيرة إلى:

- مراجع ذات اتجاه نفسي.
- مراجع ذات اتجاه نفسي اجتماعي.
- مراجع ذات اتجاه تاريخي.

كما تم الاعتماد على تحليل المضمون لمختلف هذا الكم المعرفي للتمكن من الإجابة على أسئلة البحث المشار إليها أعلاه.

5- نتائج البحث و تحليلها:

❖ **سؤال البحث الأول: كيف تبنى و تتشكل التصورات الاجتماعية حول أوروبا و ما هو أثرها على السلوك؟**

يدرك الإنسان العالم الخارجي بتأثيراته و مكوناته بواسطة تنظيمات ديناميكية يطلق عليها التصورات الاجتماعية، تتكون هذه الأخيرة من خبرات الفرد و تاريخه الشخصي و الجماعي. حيث أكد Kaes أن التصورات الاجتماعية نتاج نشاط و بناء عقلي للواقع عن طريق الجهاز النفسي، انطلاقاً من المعلومات التي يتلقاها الفرد من حواسه و كذا من تلك التي جمعها أثناء تاريخه الشخصي (و التي تبقى محفوظة في ذاكرته) مضاف إليها معطيات و خبرات تحصل عليها من العلاقات مع الآخرين . كل تلك المعلومات تدخل في إطار معرفي

شامل و منسجم بدرجات يسمح للإنسان بفهم الكون و التأثير عليه و التأقلم معه أو حتى الهروب منه. (4)

فالتصور شيء غائب يضاف إليه شيء حاضر، أي انه عملية متطورة و مستدمجة من طرف الفرد أو الجماعة. يعيد بنائها في نظامه و يدمجها في نظامه و نظمه القيمية المرتبطة بحياته و بالخطاب الاجتماعي و الإيديولوجي للمحيط.

إذ تتم عملية تكوين التصورات وبناء موضوعها ذهنيا بعيدا عن الواقع، فيستحضر من خلال الترميز (إشارة، حركة، صورة.....). كما أن له هدف يظهر بمساعدة اللغة و التعبير عنه. فتخرج التصورات إلى ارض الواقع و يتم تأويلها أو ترجمتها تبعا لعوامل البيئة الثقافية و الاجتماعية. فالتصورات الاجتماعية حسب موسكوفسي عبارة عن نظام من القيم و الأفكار و الممارسات و هي مزدوجة الوظيفة، فالأولى ترتب الأمور بالشكل الذي يسمح للأفراد بالتوجه و التحكم في محيطهم المادي و الثانية تسهل الاتصال بين أعضاء الجماعة الواحدة بمنحهم شفرة لتمييز و تصنيف الجوانب المختلفة لعالمهم و تاريخهم الفردي و الجماعي.

فالتصورات الاجتماعية انعكاس لتاريخ و تجارب و مشاعر و أفكار مشتركة بين العديد من الأفراد تساعد على إعطاء معنى لتصرفاتهم و ممارساتهم، إذ تسمح بالتوقع بالنسبة لموضوع التصور بالتوجيه الملائم وبناء السلوكيات المناسبة. فالفرد أثناء فهمه للمحيط و التعامل معه يكتسب و ينمي أنماط تفكيرية تترجم على أنها تصورات اجتماعية أو ذهنيات جماعية تحرك أفعالنا و تفسر حقائق عالمنا.

فتكونت عند شبابنا اليوم تصورات اجتماعية ساهمت في زيادة الهجرة غير الشرعية كوسيلة للهروب و تغيير الواقع، أو حتى كمبرر لأفعالهم. و هذا ما تسعى دراستنا إلى إثباته. فعدد كبير من الشباب يتصورن أوروبا على أنها بلد العمل، المال، الجمال و بلد لتحقيق الأمناني و الأحلام و التضامن الإنساني. بناء على هذه التصورات يقررون الهجرة إليها حتى لو اعتمدوا على طرق غير شرعية مبررين بذلك أن الحلم و الحياة الأوروبية (خاصة الفرنسية) تستحق عناء المخاطرة بالحياة.

تعتبر صيرورة الترسخ العملية القاعدية و المكون الأساسي في إدخال الرواسب التاريخية و العوامل الحضارية في تكوين التصورات الاجتماعية حول موضوع ما، إذ تعمل على تنشيط التاريخ الجماعي و مزجها مع الواقع و التجارب الفردية المعاشة لتكون خليط تاريخي،

اجتماعي و نفسي يبني عليه سلوكيات و مواقف الإنسان في الحياة. فقد ساعدت بصمة فرنسا بسياستها الاستعمارية و بمخلفاتها على الهوية الجزائرية مع الإعجاب بالحضارة الأوروبية و التقدم و الرقي المشهود لها مع تلاحم أوضاع معيشية متردية، في تكوين تصورات اجتماعية قوية حول أوروبا لم تتغير حتى مع الأزمات الاقتصادية التي مرت بها دول الاتحاد الأوروبي و ارتفاع نسبة البطالة فيها. فبرغم من ذلك ما زال العديد من شبابنا يرى فيها أرض الموعد، هذا من جهة و من جهة أخرى، نرصد أن فئة واسعة اليوم لا تهاجر بسبب البطالة أو أوضاع اقتصادية سيئة فالعديد منهم ينعم بطيب العيش في الجزائر و لكن رغبة التغلغل في نمط العيش الغربي يبقى مهيم على كل الظروف و الطمع في استغلال البعد التضامني الذي تقدمه الدول الأوروبية للاجئين و للمهاجرين و بذلك يتأكد لنا البعد التاريخي في تكوين التصورات التي تحدد حياة الفرد قولا و فعلا. فسلوكياتنا عبارة عن انعكاسات لتصوراتنا الاجتماعية لموضوع ما و ما تصوراتنا الاجتماعية إلا مزيج من بصمات تاريخية، نفسية و اجتماعية.

مما ذكر نستنتج أن لصورة أوروبا أثر أعمق مما يتصوره البعض على الهجرة السرية. بل قد يكون عامل أساسي للظاهرة. كما لا يفوتنا ذكر أن أسباب و طبيعة الهجرة غير شرعية في الجزائر تختلف كل الاختلاف عن نظيرتها في الدول الأخرى حتى الشقيقة منها. فقد تتعدد الأسباب عند البعض و يعتبرونها نتيجة للفقر و الانفلات الأمني و العجز الاقتصادي الذي تشهده بعض الدول خاصة التي عرفت ريبعا عربيا. أما في الجزائر فالأمر أعمق من مشكلات اقتصادية و سياسية بل أزمة ضاربة في جذور التاريخ.

❖ سؤال البحث الثاني: ما هي معززات هذه التصورات و علاقتها بالهجرة غير الشرعية؟

تتكون التصورات الاجتماعية لأي موضوع عبر عمليتين أساسيتين هما التوضيح و الترسخ. و تعزز هذه الصور الاجتماعية (في دراستنا هذه حول أوروبا) من خلال مرجعيات أساسية تتأرجح بين ما هو ثقافي محلي و تاريخي.... و ما هو وافد من خلال ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة و ما تنشره التكنولوجيات الحديثة لتجارب الأفراد و حياتهم.

- أوروبا في الثقافة الشعبية المحلية:

إن المجتمع المحلي ينتج بنياته الذهنية و الثقافية و اللغوية و أنماطه السلوكية و المعيشية بما يتلاءم و إنتظاراته. و انطلاقا من هذا المخزون الثقافي الخاص يتصرف الفرد و يتبع

اتجاهات و سلوكيات اجتماعية تتماشى مع توجهاته و تعكس نظريته إلى الظواهر الاجتماعية. (5)

فالتصور إنتاج ثقافي و تسلسل تاريخي ظاهر معبر عنه اجتماعيا كنموذج ثقافي مجسد تاريخيا. بحيث يسجل التصورات دائما في سياق تاريخي معين، و هي تابعة للوضع الواقعية و المتميزة أساسا بطبيعة المشروع الاجتماعي و السياسي و تطور شبكة العلاقات الاجتماعية و الإيديولوجية. (6)

فالمتمتع للثقافة الشعبية الجزائرية، يلاحظ أن مشروع الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا غالبا ما يبنى على مخيال جماعي ايجابي مفاده أن الهجرة إلى بلدان أوروبا مصدر للثروة و تحسين الأوضاع المعيشية. و هذا ما يتعزز مع تلك القصص التي تسرد من حين لآخر حول نجاح أحد أو بعض أبناء الحي في هجرته إلى الضفة الأخرى، كذلك وجود أحد أفراد العائلة أو الأقارب أو أحد الأصدقاء في الخارج. و ما يزيد في شحن معنويات الحماس و الإصرار حول أوروبا هي صور النجاح الاجتماعي الذي يظهره المهاجر عند عودته إلى البلاد لقضاء العطلة حيث يتفانى في إبراز مظاهر الغنى. (7)

ذلك أن الهجرة هي ظاهرة ترتبط بما تنتجه الشعوب و المجتمعات من تصورات و تمثيلات و أفكار حول الآخر (أوروبا) . فهي ليست ظاهرة اقتصادية فحسب و إنما بناء خيالي متراكم و مرتبط بخصائص الثقافة التي تعتمد قاعدة الانتقال عبر الزمان و المكان و التي تأثرت هي الأخرى بمجموع الممارسات الاستعمارية التي مست كل الجوانب الشخصية بما في ذلك الثقافة. حيث تظهر في أشكال مختلفة من التصورات و المعارف و التعبيرات اللغوية لأنها تتكلم بلغة العوام و تعكس تكويناتهم الذهنية و رؤيتهم للعالم. (8)

و من هذا المنظور لا يرتبط حضور أوروبا في الثقافة الشعبية بما تنتجه الظروف الواقعية و إنما تتعدى ذلك إلى مستوى الصورة أي صورة الآخر من خلال ما ينتجه الموروث الشعبي من رموز حول أوروبا. و في واقع الأمر توارثت الأجيال منظومة تصورات حول أوروبا تعود جذورها إلى قدم الروابط التاريخية و السياسية و الثقافية التي ارسى تقاليدها الاستعمار الفرنسي. فحضور فرنسا في الذاكرة الجماعية هو حضور مرتبط بمنظومة من التصورات الايجابية التي تختزل الرقي و التقدم و تحسين المعيشة، كما اختزل أوروبا في فرنسا. إن هذه التصورات تعتبر شكلا من أشكال المعرفة المتقاسمة اجتماعيا و التي تسعى إلى بناء حقيقة مشتركة من خلال قدرتها على الربط بين الماضي و الحاضر. (9)

و على هذا الأساس، ظل أفراد المجتمع خاصة فئة الشباب تحت تأثير و سيطرة هذه الثقافة التي تشربت رواسب الحضارة الغربية و اعتبرتها القدوة و عملت على تمجيدها. لذلك كثيرا ما تعتمد إلى محاكاتها و اعتبارها مرجعية تحدد له ما يجب أن يكون عليه. فتحولت إلى أداة أو حاجة ملحة عملت على صقل هذا الموروث إلى سلوكيات تجلت في الهجرة غير الشرعية. فيظهر تأثير التصورات المستمدة و المعززة من المجتمع بما يحمله من قيم و معايير و أنماط سلوكية تشرع ضمنا أو فعليا المخاطرة بالحياة من خلال صور ايجابية مشتركة و مقاسمة حول أوروبا.

- أوروبا عبر التكنولوجيات الاتصال المختلفة:

لا تتفصل صورة أوروبا الايجابية عن ما تروج له وسائل الإعلام خاصة البصرية من مشاهد و صور مباشرة عن أوروبا. فقد حلت الصورة مكان الكلمة و أضحت أكثرنا تعبير، لأنها تحمل بعدا جديدا و جذابا أصبح بدوره موزعا للإعجاب و التمني. فالثورة الإعلامية التي يعرفها العالم جعلت السكان حتى الفقراء منهم يستطيعون اقتناء الهواتف التي تمكنهم من العيش عبر المئات من القنوات في عالم سحري يزرع فيهم أفكار و رغبة حول هذه الأوطان.⁽¹⁰⁾

فالصورة التي تبثها الفضائيات هي صورة مثيرة للانفعالات و الحواس. فكانت بذلك عاملا أساسيا في عملية التخاطب الاجتماعي. و قد لا يبدوا الأمر غريبا حينما نعلم أن هذه الفضائيات تنقن في بث نمط الحياة الجميل و ما تزخر به البلدان الأوروبية من جمال طبيعي و بشري و أساليب عيش متطورة. و لعل هذا ما يزيد في تدعيم الصور النمطية لها و المنتشرة في أذهاننا. فهو يسعى من خلال الصور الفضائية إلى معايشة الواقع الأوروبي مما يفتح له مجالات تصويرية لتأكيد ذاتيته.⁽¹¹⁾

هكذا يكون لهذه القنوات تأثيرات بالغة في اتجاهات الشباب و في تحديد ميولاتهم و توجيه سلوكياتهم. فهم يعتقدون أن ما يرونه هو الواقع. بل أن الصورة أصبحت نسق الواقع. فالصور التي تنتجها الفضائيات ساهمت في اتساع دائرة الخيال لدى المهاجر و في تمكينه من بناء تعزيزات لتصورات أوضح حول أوروبا.

هذا الأمر لم يقتصر على مجموعة القنوات بل يتعدى إلى مختلف التكنولوجيات الحديثة للاتصال و التي تتمركز في جلها حول الانترنت عامة و مواقع التواصل الاجتماعي خاصة. فالانترنت جعلت من العالم قرية صغيرة و فسحت مجال التواصل و معرفة تفاصيل حياة

الأشخاص بكل دقة. و قد يصدق البعض في قولهم أنها قربت البعيد و بعدت القريب، فتكوين صداقات خاصة من الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط و الانغماس في الحياة الافتراضية و التي لا تعكس بالضرورة الواقع الفعلي لأشخاص تجعل من الأفراد ينساقون و راء أحلام تقليد الآخر و يغامرون بحياتهم قصد الوصول إلى أسلوب الحياة الأوروبي. فأفراد المجتمع و هم يرون هذا الكم الهائل من تدفق المعلومات عن طريق مختلف التكنولوجيات، تبرز مكبوتاتهم و رغباتهم الشخصية في البحث عن تحقيق التفوق الاجتماعي و العيش على نمط و حضارة و ثقافة البلد الذي يسعى إليه. و الذي كشفت عليه القنوات التلفزيونية ووسعت مجاله الانترنت. (12)

ففي دراسة سمير رويص للهجرة غير الشرعية سنة 2014 تبين أن أكثر من 36% من عينة دراسته قد استمدت معلوماتها حول أوروبا من التلفاز و أن نسبة 20% اعتبر الانترنت مصدرها الأساسي كما بينت النتائج أن 20 % أخرى كونت معلوماتها من العائلة و الأشخاص المهاجرين.

من هنا، فإن الفرار إلى أوروبا يأتي بعد تفكير طويل و ليس وليد اللحظة. بمعنى انه ليس من القرارات التي تؤخذ باستخفاف. فالشاب يعرف مخاطر ما يقدم عليه لكنه يباشر في الهجرة املاً أن يصادفه الحظ و ينجح في مشروعه. فيعيش بين انجذابات صورة واهمة لأوروبا وواقع معيشي صعب. (13)

❖ سؤال البحث الثالث: و كيف يتصور المهاجرون غير الشرعيون أوروبا؟

تناولت العديد من الدراسات المهمة بموضوع الهجرة غير الشرعية جزئية التمثلات أو التصورات التي يحملها المهاجر حول أوروبا إلا أنها لم تتعمق في هذا الجانب المهم و الأساسي للظاهرة. و كان الغوص في التصورات أو كما اعتبرت بعض الدراسات الخيالات حول أوروبا محكومة بالصدفة أو بالضرورة الميدانية التي كشفت لهؤلاء الباحثين القوة الكبيرة و الأثر العميق لهذه التمثلات حول أوروبا أو حتى حول عملية الهجرة غير الشرعية في حد ذاتها. فبرزت كحقيقة أكاديمية قوية أفرزتها النتائج الميدانية. و هذا ما عززه قول مهدي مبروك : " أثناء مختلف مراحل دراستنا الميدانية و استنادا إلى مختلف تقنيات البحث، لفت انتباهنا كثافة النشاط التخيلي لدى الحراقين إذ تتوافر لدى هؤلاء كفاءة عالية في إنتاج صور و تصورات حول أوروبا ترافقهم باستمرار " (14)

كما بينت بسمة المشرقي في دراستها المعنونة بـ " ظاهرة الحرقان لدى الشباب التونسي: الهجرة السرية من مدينة رادس إلى أوروبا " أن أوروبا أضحت في مخيلة المرشحين للحرقان بمثابة الجنة الموعودة التي ستمكنهم من الخلاص من رقبة الإقصاء و التهميش الاجتماعي. فهي حسب اعتقادهم موطن الثروة و الحياة و الحرية و العمل و المستقبل.⁽¹⁵⁾

و قد جاءت دراستنا لتسلط الضوء على هذه الجوانب المهمة و التي أهملت في العديد من الدراسات التي اهتمت بالهجرة غير شرعية، حيث تم تبني مقاربة نفسية اجتماعية أثبتت مكانتها و أهميتها العلمية و المنهجية. فالتصورات الاجتماعية عبارة عن بناءات ينتجها الفرد (أو الجماعة) استنادا إلى: "رموز كمسلك إدراك العالم و فهمه باعتباره مجال دلالات خصبة. فالخيال لا يكتفي بنسخ صورة من الواقع في الذهن، بل يتعدى ذلك بحثا عن إنشاء عالم آخر على سبيل التخيل".⁽¹⁶⁾

و تضيف بسمة المشرقي أن المهاجرين غير الشرعيين تعرضوا لخبرات مؤلمة و إحباطات مستمرة، الأمر الذي منعهم من المشاركة في الحياة الاجتماعية، فتشكلت لديهم صور سلبية عن ذواتهم غذتها المواقف السلبية للمجتمع. فهم ساخطون على وضعياتهم رافضين التأقلم مع الواقع الذي لا يشكل عالمهم المنشود. لذلك مثلت التصورات الاجتماعية حول أوروبا بالنسبة إليهم أداة الخلاص من هذا الواقع المتأزم " و سمح للذات بإعادة بناء ذاتها و بناء العالم من جديد بالتعالي عن الواقع و الزهد فيه".⁽¹⁷⁾

ذلك أن التصورات الاجتماعية حسب Denise Jodelet عبارة عن طرق للتفكير الموجه للتواصل، لفهم المحيط الاجتماعي، المادي و الفكري و التحكم فيه. إذا فسمّة الاجتماعية لمحتوى التصورات و مسارات تشكلها يتألف من الظروف و السياقات التي تنشأ فيها و الاتصالات التي تنتقل بواسطتها و في وظائفها التي تؤديها و التفاعل مع الآخرين و مع العالم".⁽¹⁸⁾

و يعقب منصف الوناس بربطه للتصورات الاجتماعية لأوروبا بالخيال الذي يكتسي طابعا وظيفيا تتأكد الحاجة إليه زمن الأزمات الخانقة و التوترات الشديدة. فيتكاثف النشاط التخيلي لديهم قبل خوض مخاطرة الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا. و يتبنون من خلاله عالما من الصور و التصورات بشكل يجعل عالمهم الحقيقي، يغدو عالم التخيل و التمثيلات. فأوروبا أضحت عالما وريديا تتوفر فيه كل الحاجيات و تلبية الأمنيات و الطموحات التي حرّموا من تحقيقها في عالمهم الموجود. فهم يتصورن أوروبا بلد الخلاص، فيكون الأفراد

تصوراتهم من مصادر مختلفة و تتعزز بأخرى. فيشكلون عالما خاصا يتبنون فيه مجموعة من الأفكار و الآراء و الأحكام المتداولة التي تصقل في تكوين معرفي وظيفي يدعى التصورات الاجتماعية حول أوروبا، تتحول بدورها إلى حقائق اجتماعية لا يمكن الطعن فيها. و قد قسمت هذه التصورات الاجتماعية لأوروبا إلى ثلاث أبعاد أساسية هي:

- أوروبا بلد المال و الثروة و العمل:

نتيجة لقوتها الاقتصادية و الهوة الكبيرة بينها و بين دول الجنوب تعتبر أوروبا بلد المال و العمل و تحقيق الثروة و النجاح المهني وهذا ما يظهر جليا على المهاجرين العائدين لقضاء العطلة حيث يسعون لإبراز مظاهر الغنى و الترف مما يشجع العديد على الحذو مثلهم. فهم يعتبرونها بلاد الأجور المرتفعة مقارنة بالأجور الممنوحة لهم في بلدانهم الأصلية. فهي للبعض وطن الحصول على الأفضل و للبعض الآخر وطن الهروب من الأسوأ. و ما يميز هذه الصور هي خاصية الاستمرار و الانتشار و سرعة الانتقال من جيل إلى آخر. فالأفراد يتناقلون الكلام عن أوروبا قبل الهجرة إليها، و تستهلك آراء و أحكام مسبقة تنتقلها المجموعات بشيء من المبالغة. فهي في نظرهم موطن الثراء و الكسب السريع دون عناء. و المهاجر يفترض أن بإمكانه الحصول على المال و تحسين وضعه المعيشي في فترة قصيرة ذلك لسهولة الكسب و الدخل العالي و توفر فرص العمل. ففي دراسة أجراها مراد العرضاوي حول المهاجرين غير الشرعيين تبين أن تمثلهم لأوروبا كان حول المال و الثروة بنسبة 78,33%. أما العمل فكان ب 63,33 %. و في دراسة سمير رويص 2014 أكدت نسبة 38 % من عينة الدراسة أن أوروبا قناة للكسب المادي، بينما عبرت 35 % على أنها وسيلة لتأمين الثروة.⁽¹⁹⁾

- أوروبا بلد الحرية و الرفاهية و الملذات:

تلعب وسائل الإعلام دور كبير في تبيان الجانب الثقافي و الحضاري الراقى للدول الأوروبية. كما تنعكس في المستوى المعيشي المحترم الذي توفره هذه الحكومات لرعاياها. فالتطور التكنولوجي المعاصر، و ما صاحبه من أزمت اجتماعية و ثقافية حادة اثر في تشكيل ثقافة الشباب. و أصبحت الأفعال التي تمارسها هذه الفئة الاجتماعية تتطوي على أسلوب حياة معقدة. مثقلة بالقيم المستحدثة. و اليوم لا يمكن أن ننكر أن أغلبية الشباب الجزائري يعيشون ثقافة غير ثقافتهم الأصلية. ثقافة أملتها المؤسسات الإعلامية العالمية المهيمنة و سخرت كل جهودها لتفكيك الثقافة التقليدية ثم التأثير في توجيه عقول الشباب

تحت ستار الفنون، العلوم، التنوع الثقافي..... الخ . فتركيز الشباب الجزائري على ثقافة العولمة أدى إلى تشويش عقولهم فيشعروا بالاغتراب و انفصلوا على ثقافتهم الأصلية. و أصبحت اهتماماتهم تصب حول ممارسة أي فعل و في اعتقادهم انه يشبع رغباتهم و يحقق آمالهم و طموحاتهم.⁽²⁰⁾

كما تعتبر الانترنت عامل أساسي في اطلاع المواطنين الجزائريين على مختلف أنماط الحياة و الرفاهية و الحرية التي ينعم بها وطنوا أوروبا مما يشجعهم على الهجرة بأي طريقة كانت. فهم يعتبرونها أرض الحرية و زوال الممنوعات الثقافية و الاجتماعية و اختفاء المضايقات الأمنية. فمنهم من يريد التمتع بجمال الجزر الإيطالية المتناثرة على ضفاف المتوسط و منهم من يرغب في التجوال بالشوارع الباريسية و الغوص في أسلوب الحياة الفرنسي و بعضهم يبقى في رحلة بحث عن الذات و الهوية التي فقدها في موطنه الأصلي فيسعى بكل الطرق إلى التمتع بالحضارة و الرقي الأوروبي عله يجد ضالته فيه. ففي نفس الدراسة سابقة الذكر يرى العديد من المهاجرين غير الشرعيين أن أوروبا تمثل الرفاهية بنسبة 47,50% و الحرية ب19,17% و أيضا الترفيه و الميزات ب3,33%.

- أوروبا بلد حقوق الإنسان و التضامن الإنساني:

تعمل المساعدات التي تقدمها أوروبا لمختلف الدول الفقيرة في إطار التضامن الإنساني و مختلف المجهودات المبذولة لإيواء اللاجئين الفارين من ويلات الحرب مثل اللاجئين السوريين الذين هربوا من جحيم الحرب التي دامت أكثر من 3 سنوات. حيث توافدت الآلاف من العائلات إلى الحدود الألمانية طالبة الدخول و اللجوء وهذا ما قوبل بقرارات متضاربة بين الرفض و القبول مراعاة للظروف الصعبة التي يمر بها البشر في هذه المنطقة. و قد ساعدت وسائل الإعلام بمختلف أنواعها على تضخيم هذه المساعدات و إظهار الجانب الإنساني و التضامني للدول الأوروبية. فساهمت هذه المظاهر في زيادة نسبة الراغبين في الهجرة غير الشرعية طمعا في الدخول تحت غطاء اللجوء أو التضامن الإنساني التي تسعى هذه الدول للتخلي به و إظهاره. ففي دراسة أخرى أجراها العبيدي خالد حول الهجرة السرية النسائية تبين أن نسبة 41,33% تعتبر أن أوروبا بلاد حقوق الإنسان و التضامن الإنساني. و من جهة مناقضة بينت نسبة 37,33% أن على الراغبين في الهجرة استغلال هذا الجانب الحقوقي و التضامني و أن من حقهم اللجوء. فهم يعتبرون أوروبا المسؤول التاريخي و الأساسي لما تعانيه بلدانهم من واقع سيء.⁽²¹⁾ فهي السبب بحكم احتلالها الطويل لمختلف

بلدان القارة الإفريقية و استغلالها لثرواتهم الطبيعية و البشرية. من هذا المنطلق هناك شعور عام بأن الأوروبيون مطالبون بضرورة التعويض عما ألحقوه ببلدانهم الأصلية من أضرار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.(22)

من كل ما ذكر نستخلص أن أهم ما يميز التصورات الاجتماعية لأوروبا قدرتها على التحول إلى واقع خاص بفئة معينة من البشر. بل و تتعدى ذلك لتحاول تبرير أي سلوك ينتج بعدها مثل المغامرة بالنفس في رحلات الهجرة غير الشرعية في سبيل الوصول إلى أوروبا أو بالأحرى إلى صورة أوروبا. مما يمنحها قدرة الانتقال من الصورة إلى الفعل، هذا التحول من صورة بسيطة لأوروبا إلى حقيقة لها يجعل منها موجهة لإدراكنا، أحكامنا و سلوكياتنا. فالتصور الاجتماعي عبارة عن تحضير للفعل، فهي لا تتدخل فقط من حيث توجيه السلوك و لكن أكثر من ذلك في نمذجة و إعادة بناء عناصر المحيط الذي يجب أن يكون فيه. فالتصور الذي ينتجه يعكس قيم و انتماءات جماعية، بذلك فالتصور يتعدى مرحلة التوجيه ليقع في عملية تحضير الفعل.

خلاصة:

تبقى الهجرة غير الشرعية من الظواهر الخطيرة التي تأرق الدول المتقدمة منها و النامية. فدراسة هذه الأزمة يتطلب تعمق يسرد خصائصها و طبيعتها التي تختلف من بلد إلى آخر. ففي الجزائر مثلا تتلاحم كل من الظروف لتجعل من الهجرة غير الشرعية المشروع الأمثل لتغيير نمط الحياة. فلحدّ من هذه المشكلة أو التخفيف منها لا يكون إلا بدراسة علمية أكاديمية متعددة التخصصات، تحلل كل أبعادها و تستنتج استراتيجيات للقضاء عليها. عملت هذه الدراسة على تحليل أكاديمي لكيفية بناء التصورات الاجتماعية لأوروبا عند المهاجرين غير الشرعيين مبينين الأثر العميق لهذه الصور و تلاحم أبعادها النفسية، الحضارية، الاجتماعية.... على هوية الفرد و قراراته. فالهجرة السرية لا يمكن التعامل معها بزيادة الحراسة على الحدود أو توقيع اتفاقيات دولية أو حتى بتحسين الظروف الاقتصادية، السياسية و الاجتماعية.... فقط. بل يكون بتغيير جذري و فعال لعدة مقومات أساسية تدخل في لب الموضوع كتحسين قطاع التعليم و ربطه بالفهم الفعلي و التطبيق للمواطنة و الوطنية. كما نقترح العمل على تفعيل دور الشباب في بناء الدولة و بلورة خطط عمل تسعى لتغيير تصورات الشباب و اتجاهاتهم نحو العديد من المواضيع كالهجرة غير الشرعية، أوروبا، الوطن و المواطنة.

قائمة المراجع:

- 1- Valence, A : Discours médiatiques et représentations sociales de l'immigration. Accueillir, 252, 2009 P 45.
- 2- Abric, JC : Méthodes d'études des représentations sociales, érés, Paris, 2003, P8
- 3- المخدامي, ع: الهجرة السرية و اللجوء السياسي, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, 2012 ص 20.
- 4- Kaes, R : Image de la culture chez les ouvriers. Revue française de pédagogie. Vol8. 1968 P45.
- 5- خواجه, أ: الذاكرة الجماعية و التحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية, كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية, تونس, 1998 ص 19.
- 6- عامر, ن: دراسة التصورات الاجتماعية للكتابات الجدارية في المجتمع الجزائري. سطيف: مجلة الآداب و العلوم الاجتماعية, العدد 14, 2011 ص 36.
- 7- كركوش, ف: الهجرة غير الشرعية في الجزائر, مجلة دراسات نفسية و تربوية, ورقلة, العدد 4, 2010 ص 50.
- 8- عبدالحليم, م: أوروبا الاستعمارية كيف رأت الأخر, مجلة العربي, الكويت, العدد 529, 2002 ص 29.
- 9- Jodelet, D : Les représentations sociales, PUF, Paris, 2003 P384.
- 10- كركوش, ف, المرجع المذكور سابقا ص 51.
- 11- عبد الحميد, ش: عصر الصورة الإيجابيات و السلبيات, المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب, الكويت, 2005 ص 395.
- 12- المخدامي, ع: الهجرة السرية و اللجوء السياسي, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر, 2012 ص 11.
- 13- المصباحي, م: صراع الخيال و العقل في الحضارة العربية الإسلامية, مجلة دراسات عربي, الدار البيضاء, العدد 5, 2000 ص 50.
- 14- مبروك, م: الحراقون: دراسة سوسولوجية في وسط المهاجرين, مركز البحوث الاقتصادية و الدراسات الاجتماعية, تونس, 2008 ص 57.
- 15- المشرفي, ب: ظاهرة "الحرقان" لدي الشباب التونسي, مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع, إشراف المولدي الأحمر. كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية, تونس, 2007 ص 116-125.

- 16-الوناس، م: الدولة و المسألة الثقافية في المغرب العربي، سراس للنشر، تونس، 1992 ص 16.
- 17-رويص، س: الهجرة غير الشرعية من منظور الثقافة الشعبية ووسائل الإعلام الجماهيرية، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 154-2014، 155 ص 28.
- 18-Jodelet, D : OP, cit, 362.
- 19-العرضاوي، م: الهجرة السرية بالجنوب التونسي: التمثلات و الاستراتيجيات. مذكرة ماجستير في علم الاجتماع تحت إشراف مهدي مبروك، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بتونس، 2008 ص 57-60.
- 20-رمضان، م: الشباب و الثقافة: الشباب الجزائري و ثقافة الهجرة غير الشرعية، بيت الحكمة، تونس، 2010 ص 233-234.
- 21-العبيدي، خ: الهجرة السرية النسائية بالبلاد التونسية. مذكرة ماجستير في علم الاجتماع تحت إشراف حسان القصار. كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بتونس، 2014، 50-53.
- 22-الكوت، ب: ظاهرة الهجرة غير الشرعية في العلاقات الأوروبية الإفريقية، مجلة دراسات، طرابلس، العدد 8، 2007 ص 57.